نظرية الفونيم

هناك مصطلحات يجب فهمها قبل معالجة الأفكار الأساسية فى هذا الموضوع، وأول المصطلحات كلمة (Phone) وتعنى حين تستخدم فى علم اللغة (الصوت المفرد) ، أى : الصوت اللغوى البسيط الذى يمكن تسجيله بالآلات الحساسة فى المعمل[1]، وقد يستخدم فى نفس المعنى كلمة (Son) ، ولكن الأولى هى المشهورة : ثم يتولد عن هذا المصطلح مصطلح آخر هو (Phonème) ، ويقصد به (الوحدة الصوتية) على مستوى التشكيل أو التنظيم الأدائى ، ولقد تقوم هذه الوحدة على صوت واحد (Phone) ، وقد يدخل تحتها مجموعة من الأصوات أو الأعضاء ، التى يطلق عليها أيضا : (Allophone) ومعناه: صوت آخر ، إشارة إلى وجود هذا الصوت الآخر إلى جانب غيره داخل الفونيم .

فالفونيم إذن مصطلح فونولوجى ، تدور حوله بحوث كثيرة ، وربما كان من أعقد ماواجه العلماء من مصطلحات ، عندما أرادوا تحديد مفهومه، على الرغم من أن ترجمته إلى العربية واضحة ، وتأتى الصعوبة عندما يراد تفسير الأساس الذى تقوم عليه هذه الوحدة الصوتية : أهو أساس عضوى؟. أم نطقى ؟.. أم سمعى ؟.. أم وظيفى ؟.. أم نفسى؟.. أم أنه خليط من بعض تلك ؟ أو منها جميعا ؟..

كل ذلك قال به العلماء حين اختلفوا فيما بينهم ، ودفع اختلافهم علماء آخرين إلى إنكار فكرة الفونيم ، بل وإنكار أن يكون صحيحا القول

---

(١) أسس علم اللغة / ٤٧ .

بوجود مستوى للدراسة الفونولوجية إلى جانب المستوى الفوناتيكى ، وقد نشير إلى هؤلاء الرافضين فيما بعد .

ولقد يكون من الصواب أن نمسك بالخيط من أوله حين نراجع معنى هذا المصطلح (Phonème) فى معجم اللغة الفرنسية ، لنجده مستخدما فى علم الأصوات التقليدى بمعنى : « عنصر صوتى فى اللغة المنطوقة ، يقوم على أساس عضوى [هو تكوينه بواسطة أعضاء النطق] ، وعلى أساس سمعى [وهو الصفة الموضوعية أو الشخصيه للسمع] . » ، ويصنف علم الأصوات الفونيمات إلى حركات وصوامت ،وأنصاف حركات [أو أنصاف صوامت] ، أما فى علم الأصوات التشكيلى (الفونولوجيا) ، فإن هذا العنصر نفسه معتبر وحدةً متميزة للتعبير الصوتى »[1] .

وتدل إشارة المعجم على أن هذا المصطلح قد بدأ يتداول فى النحو الفرنسى منذ عام ١٨٧٣ م ، وهذه هى نفس المرحلة التى ظهر فيها اللغوى السويسرى فرديناند دوسوسور ، فلا يبعد أن يكون هذا المصطلح من استخدام هذا العالم الجليل ، والذى يعتبر حديثه عن (الفونيم) من أقدم مابين أيدينا من بحوث علم اللغة العام .

تحديد دوسوسور للفونيم

يبدأ دوسوسور[2] معالجة مشكلة (الفونيم) بالتفرقة بين جانبين من جوانب النشاط ، يبدوان أثناء الكلام ، هما :

---

(1) Dictionnaire de la Langue Française ,par p. Robert par.

(2) Cours de Ling, générale, p. 36-66.

أولا : الجانب العضوى .

ثانياً : الجانب السمعى (الاكوستيكى) .

ويقول : « إن كثيراً من علماء الأصوات يعكفون على دراسة حدث التصويت ، أعنى إنتاج الأصوات بواسطة الأعضاء (الحلق والفم .. إلخ) ، ويغفلون عن الجانب السمعى ، وهذا المنهج غير صحيح ... لأن التأثير الواقع على الأذن هو الأساس الطبيعى لكل نظرية ... هذا العنصر السمعى يوجد بصورة لاشعورية عندما نبدأ فى النظر إلى الوحدات الفونولوجية ، ذلك أننا بواسطة الأذن نعرف ماذا يكون صوت (b) أو (t) ، مثلا . ولو أننا استطعنا أن نسجل فيلما سينمائيا لجميع حركات الفم والحلق ، فى أثناء نطق سلسلة من الأصوات فربما كان من المستحيل أن نكشف عن الانقسامات فى هذا التتابع من الحركات المنطوقة ، فلا نعرف متى يبدأ صوت معين ، ولا أين ينتهى الآخر ؟ »

ومعنى ذلك أن الصوت فى دراسة دوسوسور لا يتحدد بالوصف العضوى فقط ، لأنه — كما لاحظ — لا يمكن إدراك البداية العضوية للصوت ، أو نهايتها ، من حيث كانت الحركات العضوية أثناء النطق متراسلة ، متواصلة ، يؤدى بعضها إلى بعض دون توقف ، إلا فى نهاية الكلام ، وتزداد هذه الحالة غموضاً بالنسبة إلى الأجنبى عن اللغة .

أما الاعتماد على التأثير السمعى فهو الذى يمكننا من معرفة الوحدات الصوتية ، والتمييز بين بعضها وبعض ، « ذلك أننا فى سلسلة الكلام المسموع يمكننا أن ندرك مباشرة : إن كان صوت معين مازال ممثلا لصفاته أم لا ، فمادام لدينا إحساس ببعض التوافق ، فإن هذا الصوت واحد » .

ولكى نفهم كلام دوسوسور ، نأخذ مثالا من العربية يوضحه، فالكلمة (شَعَرَ) مكونة من حيث الكتابة من ثلاثة رموز، ولكنها من حيث النطق ستة أصوات ، أولها هو صوت (الشين) ، وهو يتميز باحتكاك فى المنطقة الأمامية من الفم ، فمادام هذا الاحتكاك مستمراً فإن صوت الشين يظل فى حالة تولد سمعى ، حتى إذا انتهى الاحتكاك فإننا نحكم بأن الشين قد انتهت، ليبدأ من بعدها إصدار صوت الفتحة ،وهكذا فى الصوت الثالث (العين)، وهو عبارة عن احتكاك فى منطقة الحلق مع تذبذب فى الأوتار الصوتية ، يليه صوت الفتحة ، ثم الصوت الخامس (الراء) ثم الفتحة .

فإذا غمض علينا إدراك الحدود العضوية للصوت ، فإن الحدود السمعية يسهل التعرف عليها ، حتى مع عدم معرفتنا للغة التى نسمعها .

ويمضى دوسوسور فى وصفه التحليلى لفكرة الصوت ، وكيفية التعرف على حدوده ، فيذكر لنا أن الأصوات المتتابعة مقيسة بالزمن ، ولكنه ليس زمنا موسيقيا محدد الكمية ، متساوى الوحدات ، بل هو زمن توافقى متميز بوحدة التأثير ، وهنا نقطة البداية الطبيعية لدراسة علم الفونولوجيا .

وهو يسجل أن نظم الكتابة التى عرفتها الإنسانية تختلف فى تسجيل هذه الأزمان التوافقية ، فالأبجدية الإغريقية تخص كل صوت برمز مستقل ، وقد ورث ذلك عنهم اللاتينيون ، ولكن هذا الأساس قد اضطرب فى الكتابات الأوربية الحديثة ، حيث يستخدم رمزان كتابيان ، مثل (Ch) للتعبير عن صوت واحد هو (ʃ) أو الشين، كما يعبر كل من الرمز (C و S) عن صوت السين ، وكما يعبر رمز واحد (X) عن صوت مزدوج هو (KS).

أما الأبجدية السامية فهى تسجل الصوامت وحدها ، دون الحركات[١] ، وأما القبارصة فقد انتهوا إلى استخدام رموز ذات دلالة مركبة مثل : Pa, ti, Ko وهم يصفون هذه التكوينات بأنها مقطعية ، وهو وصف غير دقيق ، لأن المقطع يتشكل بصور أخرى مثل : tro , Pak ... إلخ .

ثم ينتهى دوسوسور إلى القول بأن تحديد الأصوات لابد أن يعتمد على الأساسين : العضوى والسمعى : « فتحديد الأصوت فى السلسلة المنطوقة لابد إذن أن يعتمد على التأثير السمعى ، ولكن وصفها لابد أن يعتمد على الحدث النطقى ، لأن الوحدات السمعية فى سلسلتها الخاصة غير قابلة للتحليل ، فيجب أن نلجأ إلى سلسلة حركات التصويت ، وسنلاحظ حينئذ أن الصوت الواحد يقابله حدث واحد خاص به :

فصوت b (زمن سمعى) = صوت b' (زمن نطقى) :

والوحدات الأولى التى نحصل عليها عند تقسيم السلسلة المنطوقة سوف تكون مركبة من [b' , b] ، وهى التى نطلق عليها : فونيم Phonème .

وبذلك يصل إلى تعريف الفونيم على أنه : « مجموع التأثيرات السمعية ، والحركات النطقية للوحدات المسموعة ، والوحدات المنطوقة ، كل منهما يشرط الآخر » .

ومن الواضح أن تعريف الفونيم على هذا النحو — هو تقريبا — نفس التعريف الذى أخذ به معجم روبير Robert ـ الذى أسلفناه فى مقدمة البحث ، مما يؤكد احتمال أن دوسوسور هو صاحب هذا المصطلح أساسا ، حين استخدمه فى الربع الأخير من القرن التاسع عشر للدلالة على هذا المفهوم .

ودوسوسور يعنى بتعريفه للفونيم أنه مفهوم مركب ، لابد فى تصوره

(١) سبقت دراسة هذه الخاصة فى (مكان الكتابة فى أحداث اللغة) ص ٥٢ .

من اعتبار الجانب السمعى والجانب العضوى ، فكل منهما شرط فى حدوث الآخر ، ولكل وحدة صوتية ، (فونيم) زمن تستغرقه ، لا يمكن تصورها بدونه ، فإذا نطقنا مثلا مقطعا فى صورة (ta) فهو مجموع من زمنين متواليين أو هو :

امتداد زمنى معين (t) + امتداد آخر هو (a) .

فإذا أردنا فصل هذه الوحدة الصوتية عن الزمن ، فإننا نضعها فى حالة تجريد ،فنتحدث مثلا عن الصوت (t) أوعن النوع (T) مجردا ـ in abstracto.

ولكى نصل إلى حصر الوحدات الصوتية التى تقوم عليها لغة معينة يجب أن نحلل عدداً كافياً من السلاسل المنطوقة فيها ، ليمكن تصنيفها ، ومن أجل هذا ينبغى أن نتجاهل بعض الفروق التى لا تهم من الناحية السمعية ، لنصل فى النهاية إلى قائمة الأنواع ، أو الوحدات الصوتية ، أو الفونيمات .

تحديد تروبتسكوى[1] للفونيم

وقد استطاع هـذا اللغوى أن يقدم بعد دوسوسور دراسة مستفيضة لمشكلة تحديد الفونيم ، سواء من وجهة نظره ، أم من وجهة نظر كل المدارس التى عرض آراءها ، شارحاً ، وناقداً ، بحيث أغنانا عن الرجوع إلى كثير من المراجع باللغات المختلفة .

وقد وضع تروبتسكوى للفونيم تعريفاً مختصراً ، يعتبر تلخيصا لعملية تحليلية قدمها بين يدى التعريف ، قال:« الفونيم هو أصغر وحدة فونولوجية فى اللسان المدروس » .

وليس من الممكن فهم هذا التعريف إلا بعرض لمحة عن التحليل الذى قدم له ، ذلك أن تروبتسكوى يرى أن كل صوت مكون من مجموعة من العناصر ، هى بمجموعها غير قابلة للتجزئة أو التحليل ، قال : « من الناحية الصوتية كل (باء) تتمثل فى سلسلة من الحركات النطقية : أولا : تقترب الشفتان ، إحداهما من الأخرى ، بحيث تغلقان إغلاقا تاما المجال الفموى

---

(١) نيقولاس سيرجيفيتش تروبتسكوى N. S. Troubetzkoy – لغوى مشهور ، من أصل روسى ، ولد فى موسكو فى ٦ أبريل ١٨٩٠ ، وكان أبوه أميرا ، وأستاذاً للفلسفة بجامعة موسكو ، وتولى منصب مدير لجامعتها ، وقد حصل نيقولاس على درجة الدكتوراه عام ١٩١٦ . وعمل فى نفس الجامعة . ثم تنقل بعد ذلك فى عدة جامعات داخل الاتحاد السوفيتى وخارجه . حتى استقر به المقام عام ١٩٢٢ فى فيينا أستاذاً لكرسى اللغات السلافية . وقد كتب بحوثا كثيرة عن اللغات المختلفة ونظمها الصوتية والفونولوجية . حتى إن الحلقة اللغوية فى براج (عام ١٩٣٨) ذكرت أنه درس حوالى مائتى نظام فونولوجى . وكانت الثمرة الناضجة التى خلفها هى كتابة (مبادىء الفونولوجيا Principes—dePhnologie — الذى توفى قبل أن يكمله فى ٢٥ يونيو ١٨٣٨. أنظر مقدمة الكتاب وقد ترجمه من الألمانية إلى الفرنسية جاك كانتينو طبعة ١٩٤٩ .

الأمامى . وفى نفس الوقت : يبدأ الوتران الصوتيان فى التذبذب ، فى حين يخترق الهواء الصاعد من الرئتين الفراغ الفموى ، ويتجمع خلف عقبة الشفتين . وأخيرا . تزول هذه العقبة تحت ضغط الهواء المندفع .

وكل من هذه الحركات مرتبط بأثر سمعى محدد ، بحيث إن أية جزئية من هذه الجزئيات السمعية (Atomes accoustiques) — لا يمكن اعتبارها وحدة فونولوجية ، لأنها تبدو دائما كلاً ، لا يمكن افتراقها فيما بينها مطلقا ؛ فالاحتباس الشفوى ، يليه دائما الانفجار ، الذى يولده دائما الاحتباس ، والجهر ذو الطابع الشفوى الذى يرنّ بين الاحتباس والانفجار ، لا يمكن أن يظهر دون الاحتباس الشفوى والانفجار .

فالباء كلها إذن ـ تعتبر وحدة فونولوجية ، غير قابلة للتحليل من حيث الزمن ، ومن الممكن أن نقول نفس الشىء عن الوحدات الفونولوجية الأخرى .

هذه الوحدات الفونولوجية التى لا يمكن تحليلها من وجهة نظر اللغة المدروسة إلى وحدات فونولوجية متوالية أصغر — هى التى نطلق عليها (فونيمات)[1] .

وبذلك يمكن فهم التعريف المتقدم القائل بأن الفونيم هو « أصغر وحدة فونولوجية فى اللسان المدروس » .

وقد استطرد تروبتسكوى فى تفسير وجهة نظره هذه ـ بأن من الواجب ألا نبسّط الأشياء ، فنصور لأنفسنا الفونيمات وكأنها قطع من الأحجار ، تتكون منها الكلمات المختلفة ، لأنه يرى أن كل كلمة تعتبر كلا صوتيا ، بمثابة شبح Silhouette ، والسامعون يتعرفون عليها كما يتعرفون على الشبح ،

(1) Principes de phonologie, p. 37 ot sq.

أشبه شيء بتعرف الإنسان على رجل يسير فى الطريق سبق أن رآه ، فهو يتذكر مجموع شبحه ، ولكن التعرف على الشبح يفترض أنه يتميز عن الأشباح الأخرى ، وليس ذلك ممكنا إلا بأن تتميز هذه الأخرى فيما بينها ببعض العلامات . والفونيمات هى إذن العلامات المميزة لأشباح الكلمات ، فينبغى أن يكون فى كل كلمة من الفونيمات بقدر مايلزم لتمييزها عن جميع الكلمات الأخرى ، وهذه الفونيمات المتتابعة خاصة بهذه الكلمة وحدها ، وإن كان كل حرف بمفرده فى هذا التتابع يبدو أيضا علامة مميزة فى كلمات أخرى .

والفرق بين وجود (الكلمة) عند تروبتسكوى ، وبين وجود (الفونيم) هو أن كل كلمة من حيث هى (شبح) تحتوى دائما شيئاً أكبر من مجموع حروفها أو فونيماتها ، هذا الشيء هو (الوحدة) التى تضم هذا التتابع من الفونيمات ، وتمنح الكلمة فرديتها ، بيد أن هذه الوحدة ليست مستقرة فى جسد الكلمة ، ولذلك يمكن تحليل جسد الكلمة إلى فونيمات ، كما يمكن تحليل أى لحن مكون من مجموعة نغمات السلم الموسيقى إلى (النوت) التى يتألف منها السلم ، مع أن اللحن يحتوى زيادة على النوت ـ شيئا يمنحه شبحه الموسيقى الخاص .

وعلى الرغم من أن تروبتسكوى قد أفاض فى تحليل فكرته عن الفونيم ، فقد انتهى فى خاتمة حديثه إلى أن الأساس الذى يقوم عليه تعريف الفونيم ينبغى أن يكون (وظيفته) فى تمييز كلمة عن أخرى ، وقد وضع لهذا التمييز قواعد يمكن تطبيق بعضها على اللغة العربية :

القاعدة الأولى :

إذا كان الصوتان من نفس اللغة ، ويظهران فى نفس الإطار الصوتى ، وإذا كان من الممكن أن يحل أحدهما محل الآخر ، دون أن ينتج عن هذا

التبادل اختلاف فى المعنى العقلى للكلمة ـ حينئذ يكون هذان الصوتان صورتين اختياريتين لفونيم واحد .

ومن تطبيق هذه القاعدة على العربية أن نجد لفونيم (الجيم) صوراً نطقية يمكن أن يحل أحدها محل الآخر دون أى تغيير فى المعنى ، ومعنى ذلك أن هذه الصور الصوتية تنتمى لفونيم واحد هو فونيم (الجيم) .

ولو أننا نظرنا إلى النطق القرآنى للسين فى كلمة (مسيطر) ، لوجدناه أحيانا يأتى بالسين مرققة على وجهها ، ويأتى بها أحيانا مفخمة ، فى شكل الصاد ، وهى أصلا سين ، فالصوتان إذن هما صورتان لفونيم واحد ، ما دام التغيير لم يترتب عليه اختلاف فى المعنى العقلى للكلمة .

القاعدة الثانية :

إذا كان الصوتان يظهران تماما فى نفس الموقع الصوتى ، ولا يمكن أن يحل أحدهما محل الآخر دون تعديل معنى الكلمة ، أو دون أن تصير الكلمة إلى الغموض — حينئذ يكون هذان الصوتان صورتين واقعيتين لفونيمين مختلفين .

ولو أننا طبقنا هذه القاعدة على العربية ، فسنجد أن ارتباط تغير المعنى بتغيير الفونيم هو الفيصل فى تحديد أشباح الكلمات ، فالكلمتان سار وصار — لكل منهما معنى معين ، يختلف عن الأخرى ، لأن كلا منهما تتميز بفونيم خاص هو علامتها ، فالسين والصاد هنا فونيمان ، وكذلك الحال فى الأصوات الأولى من الكلمات :

(باب ـ تاب ـ ثاب ـ جاب ـ خاب ـ ذاب ـ راب ـ ساب ـ شاب ـ صاب ـ طاب ـ عاب ـ غاب) ، فإن هذه الأصوات تعتبر فونيمات مستقلة لأن مجرد اختلافها مع الاتفاق فى بقية أحرف الكلمة ـ يعنى اختلاف المعنى.

القاعـدة الثالثة :

إذا كان الصوتان من نفس اللغة ، متقاربين فيما بينهما من الناحية السمعية ، أو النطقية ، ولا يبرزان مطلقا فى نفس الإطار الصوتى ـ فإنهما يعتبران صورتين تركيبيتين لنفس الفونيم[١] .

وقد أطلق الدكتور تمام حسان على هذه الفكرة مصطلح التخارج بين أعضاء الفونيم ، فالنونات المختلفة متخارجة من حيث الموقع ، لأن لفونيم النون صورا كثيرة تظهر كل منها فى موقع معين ، فالنون الساكنة قبل صوت أسنانى (كالثاء) تنطق أسنانية ، والنون الساكنة قبل صوت لهوى (كالقاف) ـ تنطق لهوية ، وهكذا تتعدد صور النون باختلاف الأصوات التالية لها ، وبحيث لا يمكن فى بيئة معينة أن تحل صورة أسنانية محل صورة لهوية ، وينقل الدكتور تمام عن دانيل جونز قوله : « إن الفونيم فى لغة ما عائلة من الأصوات متقاربة فى خصائصها ، تستعمل بطريقة لا تسمح بأن يستعمل أحدها فى نفس البيئة الصوتية ، التى يستعمل فيها الآخر أبدا »[٢] .

ولكن من الواضح أن تروبتسكوى ، رغم إصراره على تعريف الفونيم تبعاً لوظيفته ـ قد اعتمد على تحديد الجانب العضوى والسمعى فى وصفه ، وكأنه بذلك يسجل اعترافا بما ذهب إليه قبله اللغوى الرائد فرديناند دوسوسور .

---

(١) السابق ص ٤٧ ومابعدها .

(٢) مناهج البحث فى اللغة ـ ص ١٢٦ .

ولسوف نرى أن هذا الاتجاه قد ساد مدارس علم اللغة التى قدر لآرائها أن تنتشر وتقنع أجيال الباحثين فى هذا الموضوع .

على أنه قد اتضح من تطبيق القواعد السابقة أن (الفونيم) يتميز بخصائص متوافقة تجعل منه وحدة فونولوجية مغايرة لما عداها من الفونيمات، وبذلك يمكن القول بأن الفونيم « هو مجموع الخصائص الفونولوجية المتوافقة ، التى تحتويها صورة صوتية » (١) .

وهذه هى النتيجة التى انتهى إليها تروبتسكوى ، وهى توشك أن تجعل من الفونيم وحدة تجريدية ، تتحقق ببعض خصائصها فى الصورة الصوتية المختلفة ، وهو فعلا ما عبر عنه حين قال : « إن الأصوات المحسوسة التى تبرز فى اللغة ليست سوى رموز مادية للفونيمات ... وليست هذه الأصوات هى الفونيمات فى ذاتها »(٢) .

وليس بوسعنا أن نثير الآن مشكلة إطلاق مصطلح (فونيم) على الوحدة الصوتية متعددة الصور ، دون الوحدة الصوتية ذات الصورة الواحدة ، أو إطلاقه على كلتا الوحدتين ، فذلك موضوع سوف نعالجه من خلال مناقشتنا التالية لآراء دانيل جونز .

غير أن من الضرورى أن نشير إلى أن تروبتسكوى قد ارتضى تعريف بلومفيلد للفونيم ، وهو القائل بأنه : « أصغر وحدة متميزة » ، وارتضى

---

(1) Principes de Phono. P. .40

(٢) السابق .

أيضا تعريف بهلر للفونيم بأنه : « علامة صوتية فى جسد الكلمة » ، ورأى فى هذين التعريفين رجوعا إلى نفس المنطلق الذى حدد على أساسه تعريفه للفونيم ، وهو أن كل لغة تفترض وجود متغايرات فونولوجية متميزة ، والفونيم مصطلح يطلق على هذه المتغايرات التى لا تقبل الانقسام إلى وحدات فونولوجية متميزة ، أكثر صغرا[١] .

obeikandl.com

---

(١) السابق .

التحديد النفسى للفونيم

أدركنا من المناقشة السابقة كيف تقوم فكرة (الفونيم) على أساس عضوى ، أو سمعى ، أو وظيفى ، وهذه كلها أسس موضوعية يمكن لمحها فى السلسلة الكلامية المنطوقة .

ويجب أن نقرر هنا أن (الفونيم) فكرة تتصل باللغة المنطوقة ، أى : بالكلام ، الذى يقدم دائما صوراً مختلفة الأداء للفونيم الواحد ، على حين أن الكتابة فى أى لغة لا تستعمل سوى رمز واحد لمجموعة صور الفونيم ، رمز يلخص كل الصور المنطوقة .

وقد ظهر من اللغويين من اعتبر الفونيم فكرة تقوم فى الذهن ، فهى أساسا ذات طابع عقلى تجريدى ، ودور المتكلم فى تحقيقها هو أنه يقوم باستحضارها فى عقله ، ويحاول أن ينطقها فى الكلام(١) بقدر ما تدرب على النطق فى بيئته ، أى : على أساس السليقة ، التى تفترض عدم شعور المتكلم بخصائص لغته عند ممارستها .

وقد وضع ج . بودوان G. Bondouin — تعريفا للفونيم بمصطلحات علم النفس ، لصوغ الفكرة السابقة . فقال : « إنه المعادل النفسى للصوت اللغوى » :

« L'é équivalent Psychique du son du Langage » (2)

---

(١) مناهج البحث فى اللغة / ١٢٨ .
(٢) تروبتسكوى السابق .

وتروبتسكوى فى هذا النقد يحاول إثبات أمرين :

أولهما : أن الصوت اللغوى لا يعامل كوحدة مستقلة ، وإنما هو عنصر فى بناء كلى هو حدث الكلام المستمر المسموع ، وذلك انطلاقا من فكرته القائلة بأن الفونيم يتحدد بوظيفته فى التركيب الصوتى المنطوق ، لا بذاته .

وثانيهما : أن العلاقة بين الصوت والفونيم ذات صبغة لغوية ، لا يتدخل فيها أى عامل آخر نفسى ، كما يرى أتباع المدرسة النفسية ، وأننا نستدل على خصائص الصوت الوظيفية بخصائص الفونيم ، لا العكس .

ويمضى المؤلف فى تتبع الأسس النفسية لتفسير الفونيم فينقضها فكرة فكرة ، يقول : « إن من الواجب أن نتجنب اللجوء إلى علم النفس لتعريف الفونيم ، لأنه فى الواقع فكرة لغوية ، وليس فكرة نفسية ، وكل لجوء إلى (الوعى اللغوى) يجب تنحيته عند تعريف الفونيم ، إذ أن (الوعى اللغوى) إما أن يكون استعمالا مجازيا للغة معينة ، وإما أن يكون فكرة غامضة تماما تحتاج إلى أن تعرف بدورها ، وربما استحال تعريفها » .

ولهذا السبب أيضاً رفض تعريف فان ويك Van Wijk ـ الذى نشره عام ١٩٣٦ ، والقائل بأن « فونيمات لغة ما تشكل طائفة من العناصر اللغوية التى توجد فى ذهن جميع أعضاء الجماعة اللغوية » ، وهو القائل أيضاً : « إن الفونيمات هى أصغر الوحدات التى يشعر الوعى اللغوى بأنها غير قابلة للانقسام » ـ فربط مفهوم (الفونيم) بأفكار غامضة مثل (الذهن) ، و (الوعى اللغوى) و (الشعور) ـ لا يمكن أن يفيد فى شرحه ، لأن من المستحيل أن نتعمق فى مفهوم عبارة (ذهن جميع أعضاء الجماعة اللغوية) ولا سيما إذا كان الأمر متعلقا بلغة ميتة ، كما أن الكشف عما (يشعر به الوعى اللغوى) مشروع شائك وصعب للغاية .

ويخلص تروبتسكوى إلى قوله : « إن الفونيم قبل كل شىء مفهوم وظيفى ويجب أن يعرف بالنسبة إلى وظيفته ، وتعريفه لا يمكن أن يتحقق بواسطة المفاهيم النفسية »[١] .

ولقد يوضع فى إطار هذا النقد رأى إدوارد سابير الذى يستعمل فى مقاله المعنون : (أنماط الأصوات فى اللغة) ـ الاصطلاحُ : «أصوات مثالية» ليقصد الفونيمات من وجهة النظر العقلية ، وهو يقول بأن « هذه الأصوات المثالية التى يكونها إحساس المرء بالعلاقات المقصودة بين الأصوات الموضوعية أكثر تحققا فى نظر المتكلم الفطرى من الأصوات الموضوعية نفسها » ، ويقول فى نفس المقالة : « إن السيكلوجية المركبة للعلاقة والنمط واضحة فى نطق أبسط صامت وحركة »[٢] ، فكل ذلك ينبغى رفضه طبقا للمنهج اللغوى .

وبرغم هذا النقد المرير الذى وجهه تروبتسكوى إلى تفسير الفونيم على على أساس نفسى ، فقد وجدنا ماريو باى يتبنى هذا الأساس ، وهو يقول عن موضوع (علم الفونيمات) : إنه « الأصوات ، أو المجموعات الصوتية المتقاربة ، التى يدرك علاقتها شعور الجماعة التى تتكلم لغة معينة ، والاختبار الموضوعى للفونيمات هو (المغايرة) أو الاختلاف فى المعنى ، الذى يظهر أو لا يظهر عندما يحل صوت محل آخر ، مع بقاء سائر حروف الكلمة كما هى»[٣] .

وهو بهذا يجمع بين معطيات التفسير النفسى ، ومعطيات القواعد التى حددها تروبتسكوى لتحديد الفونيم .

ويقول : « إن وظيفة هذا العلم وصف أصوات لغة معينة وتصنيفها على أساس من إحساس المتكلمين باللغة »[٤] .

---

(١) السابق/٤٣ (٢) مناهج البحث فى اللغة /١٢٩
(٣) أسس علم اللغة /٥٠ (٤) السابق / ٤٨

ويعرف الفونيم بقوله : « إنه مجموعة ، أو تنوع ، أو ضرب يضم أصواتا وثيقة الصلة (فونات) ، ينظر إليها المتكلمون على أنها تمثل وحدة واحدة ، بغض النظر عن تنوعاتها الموضعية »(١) .

فالفيصل فى تمييز الفونيم تبعا لهذه التحديدات ، ليس هو الأساس العضوى ، أو الوظيفى ، أو النطقى ، ولكنه (شعور الجماعة) و (إحساس المتكلمين) . وهو ما سبق أن انتقده تروبتسكوى فى آراء بودوان وغيره .

---

(١) السابق / ٤٩ .

obeikandl.com

تحديد دانيل جونز للفونيم

وتعريف دانيل جونز للفونيم على أنه : « عائلة أو مجموعة من أصوات اللغة المتقاربة سماعا ونطقا ، والتى لا تظهر مطلقا فى نفس الإطار الصوتى » ـ يحمل ابتداء نقطة ضعف واضحة ، لأنه يقصر (الفونيم) على مجموعة الأصوات المتقاربة ، المحكومة بالسياق الصوتى ، وذلك كفونيم (g) مثلا ، فهو فى الفرنسية ينطق بصورتين تبعا للحركة التالية له ، فإذا جاءت بعده الرموز (a, o, u) فهو كالجيم القاهرية ، وإذا جاءت بعده الرموز : (e, i, y) نطق معطشا ، كالجيم الشامية .

وبذلك نفهم من تعريف دانيل جونز :

أولا : أن الفونيم لابد أن يكون عنوانا على مجموعة أصوات محكومة بالسياق .

ثانياً : أن هذا السياق كتابى أكثر منه نطقيا ، أو كما يقول تروبتكوى : « إن فكرة الفونيم لدى دانيل جونز ذات علاقة وثيقة بمشكلة الكتابة الصوتية » .

ثالثاً : أن الأصوات المفردة ليست فونيمات ، مادامت تنطق بصورة واحدة دائما .

ولقد اصطدم هذا التصور لديه بحقيقة أخرى هى أن الصوت قد يكون ذا صورة واحدة فى إدراك الأذن المجردة له ، ولكنه فى الواقع ، وكما برهن

على ذلك علم الأصوات التجريبى ، مجموعة أصوات ، إذ أن من المستحيل أن ننطق صوتاً معينا بنفس الطريقة ، وفى إطار صوتى مختلف .

وعلى ذلك يصبح كل صوت ، أو على الأصح : كل رمز — عنوانا على مجموعة من الصور المنطوقة ، وهكذا مضى دانيل جونز فى تطويره لنظريته عن الفونيم ، فأضاف إلى مصطلح (فونيم) ، و (فون) مصطلحا ثالثا هو : الصوت المزدوج (Phone Dia) ، وقد كان يفهم من هذا المصطلح : « عائلة من الأصوات يمكنها أن تتبادل الأماكن دون تعديل فى معنى الكلمة » وجعل مدلول الفونيم : « عائلة من الأصوات المزدوجة غير القابلة للتبادل » .

وقد سبق أن قلنا : إن لبعض الأصوات صوراً سياقية تتبادل فيما بينها ، كصورتى السين فى كلمة (بسطة — بصطة) ، فهذا عند دانيل جونز (ديافون) . ولكن صورة النون قبل القاف لا يمكن أن تتبادل موقعها مع النون الأسنانية ، فمجموع صور النون هو (الفونيم) عنده .

وقد لجأ دانيل جونز ، إلى نظرية الأصوات المجردة (Les sons abstraits) التى طورها البروفسور اليابانى جمبو (Jimbo) ، واللغوى الانجليزى بالمر — فى طوكيو ، ومقتضى الأخذ بهذه النظرية أنهم اعتمدوا على السمات المشتركة التى يسفر عنها أداء الأصوات عدة مرات ، رغم الاختلاف فى كل مرة ، وبذلك تنشأ الفونيمات على أساس من التجريد للعائلة الصوتية ، وبذلك يقع دانيل جونز فى خطأ هو أنه يعرف الفونيم بعلاقاته بالصور الصوتية ، وتلك هى الدائرة المفرغة التى أشار إليها تروبتسكوى من قبل ، حين ارتضى عكسها ، الذى يعرف الصورة الصوتية بعلاقتها بالفونيم .

تحديد فريمان توادیل

وآخر المحاولات التى فسرت (الفونيم) هى محاولة فريمان توادیل Freeman Twaddell ، فى بحثه القيم : « on Defining the Phoneme » وقد نظر إلى ما سبق من الآراء والنظريات ، فبدا له (الفونيم) وكأنه شبح مقدس ، أو لغز مطلسم ، أو أقنوم [١] (جوهر لا ينقسم) ، فهو يخشى أن يتحول مفهوم (الفونيم) إلى شىء مبتذل نتيجة كثرة الآراء والنظريات ، أو لعله خشى من معالجة الفونيمات كما تعالج الأشياء التى يملكها الأفراد المتكلمون ، فيبنون بها الكلمات والجمل ، وكأنها قوالب من حجارة ، على ما عبر تروبتسكوى ، ويحسن أن ننقل هنا حديثه [٢] :

أراد توادیل ـ درءا لهذا الخطر ـ أن يؤكد بكل قوته الخاصة النسبية للفونيم ، (وأنه مصطلح يدل على التغاير) ، فوضع لهذا الهدف نظريته عن الفونيم ، وهى التى يمكن تلخيصها على النحو التالى :

« إن التعبير [أى : الحدث الكلامى المحسوس] هو ظاهرة مادية [أى : صوت] ، مرتبط بمدلول محدد . والتركيب الصوتى الذى يتكرر فى تعبيرات مختلفة ، وله دائما نفس المعنى يسمى (صيغة ـ Forme) ، وأى صيغتين يختلف مدلولهما ـ هما من حيث المبدأ مختلفتان أيضا من الناحية الصوتية [باستثناء الجناس النادر نسبياً فى جميع اللغات] ، ودرجة التنوع

---

(١) الأقنوم فى عقيدة النصارى هو الجزء الذى لايتجزأ ، ويطلقونه على الثالوث : الآب والابن وروح القدس ؛ كل منهم أقنوم ، وهذه الأقانيم الثلاثة تنتهى بعملية تخيل افتراضية إلى إله واحد ، على حسب تعاليم الكنيسة . وتعالى الله عما يشركون أو يصفون .

(٢) تروبتسكوى السابق .

الصوتى بين هاتين الصيغتين المتميزتين يمكن أن تختلف ، والحد الأدنى من الاختلاف الصوتى بين صيغتين غير متماثلتين يتطابق مع أجزاء التركيب الصوتى المدروس ، ومن مجموعة الصيغ التى يتميز بعضها عن بعض فى الحد الأدنى تتكون المجموعة المصنفة — Class ، هذه المجموعة تتميز بالتركيب الصوتى المشترك بين مجموعة أعضائها ، وإذا كان الحد الأدنى من الاختلاف ينصب تأثيره فى جميع أعضاء المجموعة على نفس الجزء [فى بدء الكلمة أو فى نهايتها مثلا] فإن معنى ذلك أن هذه المجموعة منظمة ، ومن الأمثلة على ذلك :

المجموعة الألمانية :

قشدة = Rahim وجاء = Kam وكسيح = lahm وأخذ = nahm

أو المجموعة العربية : حام ، دام ، رام ، سام ، شام ، صام ، عام . فالعلاقات بين أعضاء مجموعة كهذه هى الحد الأدنى من التعارضات الفونولوجية، ويطلق فريمان تواديل على هذه التعارضات مصطلح : ميكروفونيم Microphoneme أو الفونيم المصغر ، ففى المجموعة الألمانية تعتبر الأصوات (n, l, k, R,) فونيمات مصغرة ، كما تعتبر الأصوات (ح ، د ، ر ، س ، ش ، ص ، ع) فى المجموعة العربية كذلك ، وهى جميعا تتأثر بوجود (am) فى المجموعة الألمانية، على حين يتنوع تأثير الفونيمات المصغرة فى (ام) فى المجموعة العربية[1] .

والمقابل الصوتى للفونيم المصغر يحتوى كثيراً من السمات النطقية ، فلدينا مجموعتان شكليتان منسقتان على هذا النحو ، إذا ما كانت العلاقات بين فونيماتهما المصغرة متماثلة ، كما فى المجموعتين الإنجليزيتين :

Pill — Till — Kill — bill
nap - gnat— Knack - nab

---

(١) الأمثلة العربية محاولة منا لتقريب المفهوم موضوع التمثيل .

فهما متقابلتان ـ لأنه حتى ولو لم تكن الطبيعة الصوتية لفونيماتهما المصغرة من نفس النوع فى الحالتين [لأن P, t, k, — تنفسية فى البداية ، وغير تنفسية فى النهاية] ـ ومع ذلك فإن العلاقات بين هذه الفونيمات المصغرة التى تحتل نفس المكان فى مختلف المجموعات الشكلية المنسوقة على هذا النحو ـ تكوّن (ماكرو فونيم Macrophoneme ـ أو فونيما مكبرا) . وهو مايقابل مفهومنا عن الفونيم ، على ما لاحظه ج . فاشيك J Vachek.

وواضح من تقابل المجموعتين الفرق بين الفونيم المصغر ، والمكبر ـ أن المصغر قليلا مايتعرض للتغيرات الصوتية مع اختلاف المواقع ، على حين أن المكبر يتميز بقدر كبير من قابلية التغير فى المواقع المختلفة ، وليس هذا سوى ما ذهب إليه تروبتسكوى فى تعريفه السابق ، فقد اعتمد على فكرة التعارض ، المرتبطة بالجانب الوظيفى للفونيم ، ولذلك يقول عن محاولة تواديل : « لقد انتهى تواديل بواسطة بعض الحيل المعقدة إلى النتيجة التى وصلنا إليها من طريق أقصر » . ويقول أيضا : « إن تعريفنا لا يحتوى شيئا يفترض أو يثير فكرة (أقنوم الفونيم) ، وكارل بهلر Karl Buhler — ينظر إلى الفونيم على أنه (علامة صوتية على وجه الكلمة) وهو تصور يتناسب مع اعتبار الكلمة شبحا ، ويتفق تماما مع تعريفنا للفونيم » .

« والفائدة التى يمكن أن تحققها التفرقة بين الميكروفونيم والماكروفونيم ـ يمكن أن تتحقق بواسطة نظريتنا عن إمكانية تحييد التعارضات الفونولوجية ، وعن الأرشيفونيم Archiphonèmes. أو الفونيمات الرئيسية ، كما يختفى خطر تدرير الفونولوجيا ، وهو الخطر المرتبطه بنظرية الميكروفونيم » .

ويقول تروبتسكوى بمنتهى الاعتداد : « فنحن نعتقد إذن أن النظرية المعقدة للفونيم ـ التى قدمها فريمان تواديل ـ لايمكن أن تحل محل تعريف

الفونيم الذى قدمناه فيما سبق ، وخير ما فعله تواديل هو أنه ألغى بصورة حاسمة جميع الأحكام المسبقةالسيكلوجية ، والحيادية التى تكونت حول مفهوم الفونيم (سواء عند بعض أنصار الفونولوجيا أو عند بعض خصومها) .

« ولاشك أن طريقته المجردة فى التعبير عن فكره، والدور الفلسفى لهذا الفكر ـ يفرضان على القارىء جهداً شاقا يعجز عنه كثير من المعاندين من خصوم الفونولوجيا ، مما يؤدى إلى حالات عدم فهم ، ولقد أدى فعلا » .

« كذلك فإن تأكيد تواديل على أن الفونيم ليس واقعا ماديا ، أو نفسيا ، وإنما هو وحدة مجردة خيالية ـ هذا التأكيد تلقاه ب كولندر B. Collinder ومريجى Merrigi ـ بالكثير من السرور، من حيث هو رفض محض لمفهوم الفونيم » .

« والواقع أنه لم يفكر إلا فيما كان فرديناند دوسوسور يعتبره جوهر كل قيمة لغوية ، وهو الوحدة التعارضية ، والنسبية ، والسلبية » .

« فإذا كان الفونيم منتمياً إلى اللغة ، وإذا كانت اللغة منظمة اجتماعية فإن الفونيم إذن قيمة ، وله من نوعية الوجود ما لكل قيمة » .

هكذا نجد تروبتسكوى شديد الإيمان بقضيته ، وبرأيه فيها ، ناقداً لآراء من تناولها فلم يوافقه ، متصديا لخصوم الفونولوجيا، الذين اتخذوا من إغراق تواديل فى التجريد ذريعة إلى التشهير بالنظرية أساسا .

ولا يعدم تروبتسكوى أن يجد من العلماء من يقدم تعريفا للفونيم يسير فى نفس الخط المنهجى الذى قال به ، فهو يقدمه ويمجده ، كتعريف أ.و. دوجروت A. w. de groot القائل بأن : « الفونيم علامة رمزية

فونولوجية ، ذات وظيفة مستقلة ، والوظيفة الأساسية له عندما يتم التعرف عليه وتحديده ـ هى أن يجعل من الممكن التعرف على الكلمات وتحديدها ، أو تحديد أجزاء الكلمات التى لها قيمة الرمز ، فمن الممكن تعريف الفونيمات على أنها أصغر الأجزاء فى التيار المسموع ، والتى لها هذه الوظيفة» ـ وإن كان يعتبر اشتراط (التعرف على الفونيم) غير ذى موضوع ، لأن الذى يقبل التعرف هو الكلمات ، لا الفونيمات . فالتعرف ليس أولا ، ولكن التمييز الفونيمى هو الأول ، ثم يليه التعرف كنتيجة منطقيـة للتمييز ، وهو خاصة سيكلوجية ، على حين أن التمييز خاصة لغوية تتناسب مع مذهبه فى تحديد المشكلة .

وبعد ، فقد أفضنا كثيرا فى عرض هذه المشكلة ، لنقدم من خلالها نموذجاً للبحث الجاد الذى يقدمه علم اللغة الحديث ، من خلال رؤية معاصرة ، ولا ريب أن لهذه الآراء المختلفة نتيجة علمية . هى تأكيد أن جوانب المعرفة الإنسانية متكاملة ، وأن سعيها الدائب إنما هو لإثبات الحقيقة أية كانت صورتها .

والصورة التى نميل إلى الأخذ بها هى أن فكرة الفونيم وسيلة إلى تصنيف الأصوات اللغوية فى مستواها السياق ، وهى أيضاً وسيلة إلى تحليل الصيغ اللغوية على أساس من الأصوات ووظائفها الدلالية ، وهو تحليل لا ينبغى أن يتجاهل اصطلاح أصحاب اللسان ، إلى جانب اعتماده على العناصر العضوية والنطقية فى تحديد الفونيم .